بِسْم الله الرَّحمٰن الرحيم
إيَّاه وحده نستعين

المقـدّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على نبيِّه الأمين، المبعوثِ رحمةً للعالَمين، أسأَلك اللّهمَّ أنْ تجعلَني منَ الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله، وأسأَلك أنْ تجعَلَني مِنَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصبر، فلا أكون من الخاسرين، ربِّ لا تجعلْني من الذين ينقضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمَرَ اللهُ به أنْ يوصل، ويُفْسدون في الأرض، أُمرتُ أنْ أعبدَ ربِّي مخلصاً له ديني، أُمِرْتُ لأُسْلم لربِّ العالَمين، وأُمِرْتُ أنْ أكون أوَّل المسلمين، إنِّي أخاف إنْ عصيتُ ربِّي عذاب يومٍ عظيم، لا عِلْمَ لي إلَّا ما علَّمني، وَسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، ربِّ وفِّقني لأفْقَهَ بقلبي، وأسمع بأذني، وأُبصرَ بعيني، فلا أكون من الغافلين، ربِّ ولا تجعلني من الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدُّون عن سبيل الله، ويبغونها عِوَجاً، هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة.

وبعد، فخلالَ قيامي بالتدريس في جامعتنا الفلسطينية ـ جامعة النجاح الوطنية ـ سَمِعْتُ الشباب المسلم في الجامعة يُنْشد شِعْراً اسلامياً ثائراً مؤثِّراً، وكان ممَّا سمعت:

نحـنُ أجيـال الـغـد وجـنـود الـسـؤدد
قد نهـلنـا عِلْمـنـا مِنْ كريـم الـمـورد
مِنْ سنـا قرآنـنـا والـهـدى الـمـحـمَّـدي

فلمَّا فرغوا سأَلت: شعرٌ من هذا؟ قالوا: شعر أَبي جهاد!!، لم أَكن يومها على علم بشِعْر أَبي جهاد، ومَضَتْ شُهورٌ، وطيفُ أَبي جهاد يجول في خاطري بإعجاب، وَحَدَثَ أَنْ زار جامعتَنا وفدُ الشباب المسلم من الجامعة الاسلامية في غزة هاشم، وأُقيم في رحاب الجامعة لقاء بمناسبة مولد سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام، فشارك شبابُ غزة المحتفلين بنشيدٍ أَعدُّوه قالوا فيه:

زَلْـزِلـوا يا أُبـاة ما أَقـام الـطغـاة
واسـجـدي يا جبـاه في رحـاب الإلـه
حيث حقَّ السجود
كُلُّنـا نفـتـدي دعـوةَ الـسـؤدد
كيْ نرى في غدٍ رايـة الـمـسـجـد
فوق كلِّ البنود

فدخل نشيدُهم أُذني مِن غير إِذْن، وحرَّك أَوتارَ قلبي بصورةٍ عجيبة، وبدَتْ علاماتُ التأَثُّر والانفعال في ملامحي، كنت أَجلس في الصف الأَوَّل، ورأَيتُني أَتلفَّت يمنةً ويسرةً، علِّي أَجدُ مَن يشاركني انفعالي، وتأَثُّري، ولمَّا فرغوا من إِنشادهم تساءلْت: شعرُ مَن هذا يا أخوةَ الدين؟ قالوا: شعرُ أَبي جهاد، قلتُ في نفسي: أَبو جهاد!!!، لأعكفنَّ على قراءة شعره كله، فشعرُ هذا شأْنُه جديرٌ منِّي بدراسة.

وحدث أَن زُرت أُردنَّنا المعطاء خلال اجازة، وسأَلتُ عن شعره، فوجدت ديوانه «في رحاب الأَقصى»، ودأَبْتُ على قراءته كلمةً كلمةً، وبعين البصيرة، ومن الجلدة إِلى الجلدة، كنتُ كلَّما قرأْتُ أَبياتاً شدَّتْني، أَتمنى لو كان أَبو جهاد عندي، لأطبع على جبينه قُبلةَ، ولن أَنسى ساعةً هامَ خيالي فيها مع أَشعارٍ له، فعلَتْ بي فِعْلَ السحر، ونسيت نفسي كلَّها، وباتَ شعرهُ يُلَوِّن تقاسيمَ وجهي كيفما شاء، ولربَّما حرَّكْتُ يدي أَو رأْسي من حيث أَدري ولا أَدري، أَما عيناي، فظهرتْ عليهما سِماتُ الأَسْر، وإِذا بولدٍ لي صغير يرقبني ذاهلاً، فإِذا به يسأَل: ما بالُك يا أَبي تفعل هكذا؟ فعرفْتُ ماذا رأى مني.

ومكثتُ في الزرقاءِ أسبوعاً، لم يَشْغَلْني خلالَه عن قراءة شعره غيرُ ساعاتِ نوم، أو صلاة، أو طعام، وَعُدْتُ إلى فلسطين، أحمل معي الديوان، وكأنني أحمل رأس كليب، أو عَلَمَ نَصْرٍ، أحلُم به، وفي جِسْر دامية ـ جسر العذاب ـ فوجئت بأحلامي تتبدَّد، وإذا بأبناء يهود ـ قاتلهم الله ـ يصادرونه، وسألْتُ عنه، ورأيتُ الضابط اليهوديَّ يقلِّب صفحاته هازّاً رأسه، فالديوان «في رحاب الأقصى!»، وكلُّ صفحةٍ من صفحاته التي تقارب الثلاثمائة تزيِّنها صورة «رشاش كبير»!!، فالديوان دعوة صريحة واضحة للقتال، وشَكْلاً ومضموناً، ورأيتُ لسانَ حال الضابط يقول: هذا الذي نخشى، ونحسب له الحساب، وانتابني حزن وحسرة وألم، ورآني رفيقُ سفرِ العذاب الذليل فقال: أمجنون أنت؟ قلت: كيف ترى؟ قال: أو مثلُ هذه الكتب يسمحون بإدخالها!! قلت: لعلَّ وعسى.

وعُدتُ إلى جامعتي «مجرَّداً» من الديوان، ويشاء الله ألَّا يطول بي المقام في الوطن بعد عودة الحرمان تلك، وكان لي شرف الإبعاد عن الجامعة وعن الوطن، كان لي شرفُ أن أتتْ مذمَّتي من أعداء الله، وأقمْت في الزرقاء سنة، وإذا بربِّي سبحانه يلهمني أن أذكر اسم شاعرنا الفذ، على مسمعٍ من أخٍ لي في الله، هو المسلم الطيب أبو الطيب محمد سعيد استيتية، الذي كان قد أبعد عن الجامعة قبلي، وإذا به يفاجئني: أتحبُّ زيارته؟ قلت: ألف نعمٍ ونعم، ويكون اللقاء الأول بيني وبين الشاعر العملاق، وأشفي الغليل بقُبلةٍ كنتُ يوماً قد تمنَّيتها، وماذا أقول وأقول، فلقد كادت لغة الكلام تتعطَّل، كما قال شوقي، اكتفاءً بأحاديث القلوب، التي كشفَتْ خافيَها العيون، فأوقاتُه جدُّ ثمينة، وما من دقيقة تمرُّ، إلا ويدقُّ فيها جرس الهاتف، أو يُدَقُّ الباب، أنْشَدَ علينا شيئاً من شعره، وأهدى لكلٍّ واحدٍ منَّا نسخة من ديوانه، وشربنا الشاي ساخناً وعلى عجل، وقام وودَّعنا كما استقبَلنا بتكريم.

ورجعتُ من عمَّان إلى بيتي في الزرقاء، قبيل العصر، وجدْتُ أسرتي تنتظر كعادتها مؤخِّرة طعام الغداء، قلت: لا أُريد زاداً، وجلسْتُ على مكتبي ممسكاً قلمي، وأخذت أقرأ شعره بشغف، فلقد آليتُ على نفسي أن

أنقده، واثقاً مطمئناً أنَّ شاعرنا احتضنه إسلام فهذَّبه، فهو يتقبَّل نقدي برحابة صدر، وسعة أفق، فلا يقابلني كما قابلني غيره من شعراء «التحرر!!» و «الفرنجة!!»، الذين ما أنْ أحسُّوا أنَّ لي نقداً لشعرهم، حتى ثاروا وثاروا، وكادوا ومكروا، وغمزوا، ولمزوا عليَّ لدى مَنْ ظنُّوا أنَّ أرزاقي بأيديهم، فحصدْتُ جزاء سنمَّار، جهلاً منهم بالنقد، ومهمَّة الناقد.

وقرأْتُ الشِعر وقرأْت، ورأيتُ أنَّ دراستي النقدية لشعره غير ما اعتدْت، كنتُ إذا أردتُ نَقْدَ شِعْرٍ وجدتُ السبيل مهيئاً، ومجالَ الانتقاد كثيراً، وحيثما أنظر أجد مآخذ وهنات، ولكني حين أردتُ دراسة شعر صاحبنا، وجدتُني كلَّما قرأْتُ بيتاً أنار لي سبيلاً كان يتغشَّاه ضباب، وفتح نوافذ كانت من قبل موصدة، ووجدتُني أستفيد أكثر مما أُفيد، وآخذ أكثر ممَّا أعطي، وانتابتْني حيرة حتى بأيِّ الأسماء أسمِّيه، وساءلتُ نفسي: أأسمِّيه الشاعر الذي أعاد للشعر الإسلامي حرارته وقوته؟ أأسمِّيه الشاعر الذي صدع شعراء الرذيلة، وشعراءَ الجاهلية الجهلاء، جاهلية القرن العشرين، الذين مافتئوا يسيرون على خطا أبي نواس وبشار وابن أبي ربيعة، متجاهلين إيماناً زعموه، وشرفاً ادَّعوه، وقلْت في نفسي: أأسمِّيه رافع راية الإسلام؟ فلقد وجدتُه يقول:

ورايـةُ الشعـر للإسـلام أرفعها　　كالشمس يشرق مجلوَّاً بأوزان

أأسمِّيه حسَّانَ زماننا؟ فهو القائل:

يعيشُ حسَّانُ في قلبي وفي قلمي　　فهل بلغْتُ بشعري روحَ حسَّان

أأسمِّيه شاعر القدس؟ القدس التي غطى حبُّه لها على حبِّ كلِّ ما عداها من بلدان الأرض، فهو القائل:

يا قدسُ يا محـرابُ يا منبـر　　يا نورُ يا إيـمـانُ يا عنـبـرُ

وهو القائل:

القـدسُ في أفقِ العلى كوكبٌ　　تشـعُّ بالـنـور فلا تعـجـبـوا

وهو القائل:

القـدسُ أُمٌّ طُهْـرُهـا غامـرٌ وحضْنُهـا بعضُ رياض الجنان

أم أُسمِّيه شاعر الأَقصى؟ فديوانهُ «في رحاب الأَقصى»، وهو القائل:

وجراحُ الأَقصى تمزِّق صدري وعـدوُّ الإسـلام يحتـلُّ داري

أأسمِّيه شاعرَ الجهاد والاستشهاد؟ فما من قصيدة له إلا وتحسُّ منها حرارة جهاد، وما من صفحة إلَّا وزيَّنها بسلاح، حتى غدا ديوانه مقاتلًا لا مقروءاً!.

هو شاعر آمَن، لم يَتْبعْهُ غاوٍ، ولم يَهِمْ في واد، ولم يَقُلْ ما لا يفعل، أو لأقلْ: فعلَ ما لم يَقُلْ، وشعرهُ شاهد بذلك، ما من بيت له قرأْتُ فلمسْتُ أنَّه من الإيمان في حِلٍّ، فقد وجدتُه وَضَعَ جنَّاتِ ربِّه هدفاً يسعى لِيناله:

وهـل أظـلُّ على عهـدي أُوثِّـقُـه

لا أبـتغي غيـرَ جنَّـاتٍ ورضـوان؟

قلتُ في نفسي: أأسمِّيه أمير شعراء الإسلام في القرن العشرين؟ فيقابل أَمير شعراء العروبة شوقي، أأسمِّيه عميد أَدب الإسلام؟ فيوازي الذي نصَّبوه عميداً لأدبنا العربي، بعدما عمل ما عمل، ونشر ما نشر، وقال ما قال، وأَمْرُهُ اليوم إلى ربِّه. أأسمِّيه الشاعر ذا العين المغرورقة، والأَجفان المخضَّلة بدمعها من خشية الله، آمِلًا ألَّا تمسَّ عينَه نارٌ، في يوم هَلَعٍ لا محالة آت، وهو القائل:

أنـاجيك في ليلي وفي العين أدمعُ

ومـا لي إلَّا رحـمـة منـك تشفـع

أأسمِّيه شاعر العزَّة؟، العزَّة التي خصَّ الله تعالى بها نفسَه ورسولَه والمؤمنين، فلقد وجدتُه يقول:

وأخـشـع في ذلِّـي إلـيـك فأنـثـنـي

وفـي الـنفس إحسـاسٌ من العـزِّ أرفـع

ويقول:

ما كان للهـامـات أن تنـحـنـي
لو كان فيـنـا عزَّةُ الـمـسـلم

وأخيراً، بعد كرٍّ في فكري وفَرّ، وضَرْبٍ وطَرْح، وعطاءٍ وأَخْذ، رأيتُ أنَّ تسميته «شاعر القدس» أكثرَ شمولاً، فوق أنها أجدى، وأكثرُ صواباً.

وأيقنْتُ أنَّ أديبنا مؤدب، أو لأقُلْ: أديبٌ أديب، أدَّبَهُ قرآن وربَّتْهُ سُنَّة، فأحسنا وأحسن، أحسنا التأديب، وأحسن التأدُّب، و«في رحاب الأقصى» يتحدى مَنْ به عمىً أو عَمَه، وسيتبين ـ وبعيون القلب ـ أنَّ سليل آل العظم حاسبٌ حساباً ليومٍ تُكْشَفُ فيه أغطيةٌ، وتُنْشَرُ صُحُف. لقد قرأتُ ديوانَه بعين بصري وعين بصيرتي، أيقنْتُ بعدها ـ ولا أزكّي على الله أحداً ـ أنَّه ممَّن يشملهم الاستثناء الربَّاني في آية الشعراء، وأيقنتُ كذلك أنَّ انتماءَه لإسلامه فاقَ انتماءَه لقبيلة أو إقليم، وأيقنْتُ أنه مهتم بأمر مسلمين شُرِّدوا وأُهينوا، وأنه فلسطيني أكثر من فلسطينيين، وما فعله لها فاقَ ما فعله شعراء كثيرون، وُلدوا فيها، وحُسبوا أنهم لها وهم عليها، هو ابنُ معان ـ المدينة الأردنية الأبيَّة ـ، ولكنَّه قَبْلَها ابنُ الإسلام الذي يربِّي الأبناء على رباط العقيدة المتين، الرباط الذي تهزل أمامه رباطات الدم والعِرق واللغة والإقليم:

أبـي الإسـلامُ لا أبَ لي سواه
إذا افـتـخـروا بقـيسٍ أو تمـيـم
ومـا كرمٌ ولـو شرفـت جدود
ولـكـنَّ الـتـقـيَّ هو الـكـريـم[1]

هو ابنُ القدس وإن ولد في معان أو عاش في عمَّان، هو ابنُ العقيدة التي ما عرفت الحدود، وابنُ الإيمان الذي حطَّم السدود، وأزالَ القيود، وجوازُ سفرِ قلبه باقٍ لا إله إلَّا الله، محمد رسول الله، ورغْمَ خُبْثِ الماكرين، وحِقْدِ تُجَّارِ القطيعة.

(١) البيتان للشاعر نهار بن توسعة.

لقد وجدتُ الدراسة التي نُشرتْ حول شعره، والتي وردت ضمن «شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث»، التي قام بها أَخَوَانِ عزيزان هما أحمد عبد اللطيف الجدع، وحسني أدهم جرار، لا تفي بالحاجة، وما كَتَبا عنه، أو عن غيره، من شعراء الدعوة ليس بكافٍ لتعريف القارىء على شاعرية أحدهم، أو اتجاهاته وانطلاقاته الشعرية، والدراسة تلك، لا تعدو أن تكون معجماً لشعراء الدعوة، تكفي للتعريف بالأسماء مع شيء من شعرهم، كم تألَّمْتُ إذ وجدْتُ المؤلفين الكريمين اكتفيا بسرد موجز لحياة الشاعر، ثم أتيا بقصيدة واحدة كاملة للشاعر أو اثنتين، هكذا!!، ودونما تعليق أو دراسة، وجدْتُهما يَدْرسان ستة شعراء، وربما ثمانية في كتيِّب صغير لا تتجاوز صفحاته المائة، ولكن الدراسة عرَّفَتْ القارىء العربي بشعراءَ جديرين أن يُعْرَفوا، أمثال الدكتور يوسف القرضاوي، وكمال رشيد، ومحمود غنيم، وعبد الرحمٰن بارود، وعصام العطار، ومحمود حسن اسماعيل، وسعيد تيم، ومبارك الخاطر، ومحمد صيام وغيرهم، عرَّفَتْ بالأسماء لا بالشاعرية، ومع ذلك كلّه، كفى المؤلفين فضْلاً هذا التعريف، وكفاهُما حُسْنُ النية، وطيبُ السريرة، وسلامةُ المقصد، والاهتمامُ بما يهمُّ القارىء المسلم، وليس هذا أبداً أبداً بالشيء اليسير.

دراستي لشعر أخي يوسف العظم هذه مقصورة على شعره «في رحاب الأقصى»، فلا هي شاملة شعر ما قبله ولا شعر ما بعده، وهي لا تشمل كذلك شيئاً ممَّا نشره نثراً من دراسات وأبحاث وقصص، وآثاره النثرية هذه جديرة بدراسة مستقلة، أسألُ ربِّي تباركَتْ أسماؤُه عَفْواً وعافية تمكِّنني أن أقوم بها في قابل الأيَّام.

أنشر هذه الدراسة، في وقتٍ أرى فيه أُمَّتَنا أشدُّ ما تكون حاجةً إلى أن ننشر في أوساطها شِعْراً اسلامياً، وقصصاً اسلامية، ونقداً اسلامياً، ومقالات اسلامية، وخواطر اسلامية، وحتى تمثيلاً اسلامياً، ينبِّه الغافلين من شبابنا وشابَّاتنا أنهم مسلمون، بعد ما قضوا رُبع أعمارهم محملقين، يتتلمذون على

جهاز الدمار التلفاز، الذي اغتال فينا الحياء، فقتل الفضيلة، وأبْعَدَ وألْهى عن الدين، رأيناهم ما أن تحين ساعة الأصيل، حتى تتحلَّق أُسرُنا «المسلمة!!»، حول هذا المفسد «تتعلَّم!» من دروسه التطبيقية العملية حتى ينتصف الليل، وربما حتى يتأهب القانتون لصلاة فجر، وتقتبس أُسرُنا كلَّ شين، وتهجر كلَّ زين، وكأنَّها خُشب مسنَّدة، مخدَّرة، مُغفَّلَةٌ أُسَرُنا والله، تظنُّ نفسها سعيدة، وما درت أنها باللهو الماجن هذا غارقة، ولبيوتها مدمِّرة، وعن ذلك كله أمام الله مسؤولة.

وانتشر فساد، وتسرَّبَ إلحادٌ، واستهتارٌ بعبادات، حتى قُرانا وبوادينا، كانت بالأمس القريب محافظة، فصِرْنا نَرى فتياتنا فيها تتابع مسلسلات الخنوع، وتقتني أشرطة الدمار وتلبس ما صمَّمه باريسيون، وتحسر الرأس، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك يا عظيم.

وغاب مصلحون، وسكَت مربُّون، وقال «لا يعنيني!» رعاة ومعلِّمون، وجَبُن أو فسد ناقدون، قادوا سفينة أدبنا إلى خضم هلاك، ولكنَّ «عربنا!» أجْلسوه على كرسي الزعامة الأدبية الفنية! كم يُؤلم أنْ وجدْتُ بعضَهم تربَّع على جهاز إعلامنا!! كم يُقلق أن رأيت منهم من بيده تصريف أمور جامعاتنا!!.

وأفلح أدباءُ الايمان، وغاب أديبٌ عاتٍ متكبر مشكِّك مفسد معاند، ربِّ وفِّق شبابَ الاسلام كي يُعْرِضوا عن أدب الفساد ودعاته ومروِّجيه، الذين بنوا أدبهم على جرف شطٍّ هارٍ، فهوى بهم في حضيض الرذيلة، وانهاروا في مستنقع الخَوَرْ، ربِّ اهدِ أُمهاتِنا ونساءَنا، وأخواتنا، وبناتنا المسلمات ليُقْبلْن على أدب العفاف، فإنك ياربِّي تحب المطَّهرين.

أحمد ربِّي فالقَ الحبِّ والنوى والأصباح أنْ وفَّقني لأتم هذه الدراسة، وأسأله سبحانه أن يجزيني الغرفة بما صبرت، فهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين، ما أُابرّئ نفسي، إنَّ النَّفس لأمَّارة بالسوء، إلاَّ من رحم ربِّي، إنْ أجري إلاَّ على رب العالمين، كفاني رضوانُه تبارَكَتْ أسماؤُه، ذلك الفضل من

الله، وكفى بالله عليماً، إنْ أريدُ إلَّا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلَّا بالله العلي العظيم.

الدمَّام ٧ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٤ هجرية
١٠ من يناير «كانون الثاني» سنة ١٩٨٤ ميلادية.

دكتور
زكي الشيخ حسين عثمان كتَّانه

obeikandl.com